هكذا أرادت الاستخبارات السوفيتية تجنيدي

جلس المقدم ضابط التوجيه السياسي الروسي
في مكتبه الصغير على انفراد معي،
وأخذ يهددني بالأسوأ ما لم أتعاون معه.

للقمر أكثر من مبرر للسعادة إذ أنه بجهد كبير ينفذ بين الغيوم الشتوية الكثيفة ناثرًا ضوئه مجاناً للعاشقين، يُسعدهم ويمنحهم زخمًا إضافيًا في إدامة حبهم السرمدي، ينير الكون ويعمل على حمل سهام عيون العشاق كي يصلها برومانسية وأمانة إلى عيون عشيقاتهم أثناء سهادهن.

مساء شتوي بارد تحت أضواء القمر الخجولة، الثلج الأبيض يُغطي شوارع مدينة كييف عاصمة أوكرانيا جاعل ليلها أبيض مُضيء كالنهار، كل شيء في المحيط يغطيه اللون الأبيض، الأشجار يكسوها الثلج راسمًا منها لوحات الخلود، الناس في هذا البلد الرائع يعشقون الثلج ولونه الأبيض الناصع ويعتبرونه جزء حيوي من ثقافتهم وحياتهم.

أدخلُ إلى مطعم (الليبد) الراقي الشهير، الذي يحتل الطابق الأول للبناية الشاهقة التي تقع في قلب المدينة الغافية على أكتاف الشتاء، يصحبني عدد من زملائي في الدراسة، كانوا يصطحبوا صديقاتهم الشابات الأوكرانيات الجميلات ما عداي، حيث حصل ذلك اليوم أن كنت وحيدًا دون صديقة... للنساء في أوكرانيا طقوس خاصة للجمال إذ يعملن أي شيء كي يظهرن بأحلى حُلة ومظهر، يمكنهن ألا يأكلن لا يشربن ولا يصرفن نقودهن على أي شيء آخر، لكنهن لا يستطعن مقاومة عدم شراء الملابس الجميلة والأحذية الفاخرة كي يظهرن مفاتنهن وجمالهن الأخاذ، التي تسلب عقول الفحول بعد أن يضربها

الكحول وحتى قبل، وباختصار شديد فإن المبدأ لديهن كل شيء من أجل الجمال ولا شيء سواه.

سرعان ما أخذ العاملون في المطعم كخلية نحل يعملون لتحضير طاولة كبيرة كعادتهم لنا، إذ أنهم يعرفون كرمنا جيدًا لتكرار زياراتنا لهم كما يعلمون قدرتنا الفائقة في السخاء عند إعطائهم البقشيش قبل وبعد أن تدور الخمر في رؤوسنا، ناهيك عن قيامهم بزيادة مبلغ قائمة الدفع أو حتى إضافة مواد لم يجلبوها أصلاً، كنا نُفاخر جدًا رغم صغر أعمارنا بقدرتنا المالية الكبيرة أمام الناس المحليين ذوي الدخل المحدود نسبيًا.

اتخذنا مجلسنا وسط القاعة الفارهة الكبيرة للمطعم، وبدأت الفرقة الموسيقية بعزف الألحان الهادئة، في ظل عمل دؤوب للعاملين في ملء كل سنتيمتر من طاولتنا بكل ما لذ وطاب من مازات ومشروبات وطعام وقناديل شموع مضيئة، وكذلك فازات ممتلئة بزهور ملونة عطرة، ما أن دارت الخمر في رؤوس الجميع حتى حمى وطيس الحفل وهبّ الجميع إلى حلبة الرقص، وبدأت الأجسام المرنة الطرية البيضاء تتمايل بمهارة وغنج كبير مُتعمدين إظهار أعلى درجات الإثارة والإغراء، ساهمنا نحن بدورنا في مهرجان الرقص الرائع والمجنون هذا وأطلقنا العنان لأنفسنا بغية نسيان كل ما يَمت إلى أمور الدراسة ومتاعب الجيش وآلام الغربة.

في حلبة الرقص تحدث أحيانًا أشياء غريبة وعجيبة، لاسيما حين تلعب الخمر في رؤوس الرجال والنساء على حد سواء، وتتصاعد الشهوة ويزداد الحنين إلى نسيان الواقع من أجل الدخول في نفق الحرية المطلقة دون رقابة أو شروط، عندها يمكن للمرء أن يرى أمور لا يلاحظها في كل الأوقات أو الأماكن العادية، مثل الالتحام الكامل لرجل وامرأة أثناء الرقص، أو قيام بعض الشابات بخلع ملابسهن العلوية وإظهار مفاتن صدورهن، ناهيك عن طقوس التقبيل المثيرة وتشابك الأرجل مع بعضها، وغور الأيادي إلى أماكن دافئة وغيرها.

ليس ببعيد عن طاولتنا جلست شابة مع صديقاتها، كانت بعمر الزهور جميلة كأن الله حباها بجمال الكون كله، رشيقة سيقانها كعيدان الخيزران بيضاء ملفوفة آخاذة تسلبُ عقل وتثير شهية أي فحل يراها، عينان زرقاوان تستحي زُرقة السماء منهما، لها أثداء بيضاء لدنة عامرة حين ترقص تهتز بقوة تكاد تنتفض وتثور على قميصها الشفاف الأسود اللون مُحاولة اختراقه بعنف لتخرج وتنثر عطرها على الجميع، وجهها كملاك أبيض جميل، كأن خلقه الله توًا وتفانى في خلقه مرات، نظراتها مثيرة وحادة كأنها تستنفر وتستدعي الآخرين للإغارة عليها، نعم إنها تحفة سماوية جميلة معجونة من دلال وجمال وغنج، أكاد لا أغالي إن قلت إنها في مصاف حوريات الجنة دون نقاش، أو أنها الآلهة عشتار بنفسها سيدة الجمال والجنس والعشق.

كانت بين الفينة والأخرى تطلق عليّ شعاع نظراتها النارية التي تكاد تخترقني تنفذ في أعماقي، تلهب نار الشوق فيَّ وتجعلني في تمنٍ دائم لضمها وتقبيلها والغوص في بُحور مفاتنها السحرية الطرية الدافئة، على مقربة من طاولتها كانت شلة من الشباب تجلس، وكان أحدهم يرقبها ويطلق سهام الإعجاب والغيرة نحوها باستمرار.

ما أن انتهت استراحة قصيرة حتى بدأت الموسيقى تصدح من جديد وبدأ حفل الرقص الأكثر إثارة وحميمية، مرت فترة ولم أستطع الانتظار طويلاً، إذ لملمتُ جميع شتات أجزائي وجعلتها في كيان واحد واستجمعت كل قواي وقدراتي، نهضت واتجهت مباشرة نحو هذه الفتاة الشابة التي غطى جمالها وعطرها الكون كله، ما أن اقتربت من حافة طاولتها حتى انحنيت نحوها مُظهر أدب جم، وباتت عينيّ ترى ما بين نهديها النافرين، شممت رائحتها الزكية المنبعثة من شعرها الأشقر الثائر بحنان والمنسدل على كتفيها الناعمين، ممدتُ يدي باسطًا إياها بحيث أصبحت على مقربة من يدها الطرية البيضاء اليسرى كادت تلامسها، بكلمات متعثرة وهادئة طلبتها للرقص، كأنها كانت في

انتظاري دهرًا، نظرت إليّ بحنان كبير، أحسست بشعور غامض كأنها بنظراتها كانت تشكرني، وهنا دار الكون بي، كدتُ أسقط من طولي، فابتسم لها قلبي قبل شفتاي دون وعي أو إرادة، نهضت والبسمة تعلو شفتاها المثيرة اللماعة وهذا ما شجعني أن أخذ يدها كعصفور حنون بين يدي وأصطحبها إلى حلبة الرقص.

ألحان المقطوعة الموسيقية الإنجليزية الشهيرة (قصة حب) كنسائم البحر تسري في نفوسنا الهائمة بهدوء وانسياب، وأنا أحتضن هذه الفاتنة، هذا الملاك الناعم الذي قدم توًا من عالم الخلود، أدور معها على لحن الحب والعشق والهيام، أنظر في عينيها فتذوب وتغرق أحاسيسي في بحر عيونها، لا أكاد أنطق شيء من الكلمات حتى تبتسم وتعلن رضاها وقبولها، أكاد أرفعها من بين ذراعيها وأزرعها فوق قمم فؤادي، أشعر بصدرها اللدن الرجراج يُصارع صدري يلامسه ينتصر عليه حتى أمكنني تحسس رجفان حلمات نهديها الناتئتين وخفقان قلبها المتسارع، تطلق بعض من كلمات بصوتها الناعم الذي يشبه عزف قيثارة سومرية، فيتملكني شعور سحري لذيذ، وقتها كادت تقودني إلى الجنون.

كم أنت جميلة وكم أنت ناعمة وكم أنت رائعة، أسقطُ كلماتي هذه في أذنها فتحني رأسها موافقة مُبتسمة مُنتشية إلى الأسفل خجلاً وتُتمتم بهدوء كلمة (سباسيبا) وتعني شكرًا، توقفت الموسيقى وانتهت رقصتنا دون أن تنفصل أيدينا عن بعضها، عيوننا ما زالت هائمة تسرحُ في بحور بعضها، قلوبنا تحاكي بعضها دون كلمات، شَبقنا على أوجه ولكن لا بد من العودة إلى أماكننا، إذ أن الجميع قد ترك منصة الرقص، كانت هذه الرقصة الأولى والأخيرة التي أسعفني حظي معها وإلى الأبد، إذ توقفت الموسيقى وبدأت استراحة جديدة.

نهض بعض أصدقائي ونهضت معهم نحو الحمام الذي يقع في الطابق الأرضي، ويفصلهما درج عريض واسع كالأفعى ملتوي، وبينما كنت أهبط سلالم الدرج اعترضني ذلك الشاب الروسي الحسود وأسمعني كلمات غير

مُستحبة، أهملتُ سماعها وأهملته، لم أجبه واستمريت بالنزول، بعد أن انتهيت من زيارتي إلى الحمام وأثناء عودتي وصعودي السلم اعترضني الشاب نفسه مع أصدقائه مرة ثانية، ويبدو أن عدم اكتراثي له أثار حنقه أكثر، مما جعله يمسك بطرف قميصي ويسحبني إلى فسحة عريضة ومنها إلى الصالة الرئيسية في المطعم.

حاول أيضًا سرقة سلسال ذهبي كنت أرتديه حول عنقي فلم أدعه يأخذه، كان مُصر على الاستمرار في اعتداءه، نسيت الشابة الجميلة وشكلها المثير، أثدائها وإغرائها، انحنائاتها الغائرة وكل شيء يخصها وحتى الموسيقى الراقية والطعام الفاخر، يبدو أنه كان في غاية القوة والنفوذ كي يتبعه الآخرون، حاول ضربي فتفاديت ذلك بأعجوبة، فما كان مني وإثر شعوري بنواياه العدوانية البائنة إلا أن أسرع خطاي نحو أقرب طاولة لأناس لا أعرفهم وأمسك بزجاجتي فودكا كانتا فوقها، وسط خوف وتعجب الجالسين على الطاولة، رطمتُ الزجاجتين ببعضهما حتى أصبحا بيديّ كمجموعة سكاكين حادة جدًا يمكنني الدفاع بهما والتخلص من شر هذا الأزعر.

تراجع هذا المنحرف عني خوفًا لكن يد شخص آخر من مجموعته من الخلف أمسكتني بقوة من ياقة قميصي وسحبتني بعنف نحو الأرض فسقطت على ظهري ولم أعلم ما حصل مع القنينتين، خوفًا من يركلني الشاب الآخر بقدمه على رأسي لممتُ أقدامي سويًا ورفعتهما إلى الأعلى واتجهت بهما نحو الخلف بقوة كبيرة باتجاه الشاب الذي كان خلفي حتى أصبته في وجهه ولم أعلم ما حصل له، المعركة مُحتدمة في وسط صالة المطعم، الفرقة الموسيقية توقفت عن العزف، الناس انزووا في جانب بعيد من الصالة تفاديًا من شظايا المعركة، وعمال المطعم يصرخون بأعلى صوتهم ستصل الشرطة قريبًا، حال أن دخل عناصر الشرطة صالة المطعم حتى اختفى جميع هؤلاء الشباب بقدرة قادر، ويبدو أنهم هربوا أو تمَّ تهريبهم عبر بوابة مطبخ المطعم.

انتهت الحرب الأهلية دون أن يضربني أحد ولكني لاحظت آثار دماء على قميصي، لم أعلم مصدره كوني لم أشعر بأي أذى، لأول وهلة اعتقدت أنها لأحد الشباب الروس، مرت ثواني حتى شعرت أن إبهام يدي اليسرى قد جُرح وينزف دمًا ولا أستطيع حركته، عندها علمت أنني قد أصبتُ بطريقة أو أخرى، مما استدعى الاتصال بسيارة الإسعاف ونقلي فورًا إلى المستشفى، لم أحظَ تلك الليلة ولا حتى بقبلة من شفاه هذه الفاتنة الجميلة، التي لم يمهلني الوقت الحصول على رقم هاتفها قبيل الاعتداء، لم أرها وللأسف الشديد لاحقًا، ولكن ولحسن الحظ لم يدفع أحد ثمن طاولتنا وبذلك كانت معركتنا مجانية.

دخل الطبيب كبير السن المخضرم ذو الشعر الأبيض الهادئ الوقور إلى غرفة العمليات حيث أرقد على منضدة العمليات، فحص إبهامي عدة مرات بتحريكه إلى الأعلى والأسفل فكان إبهامي لا يتجاوب مع محاولتي تحريكه إلى الأعلى، وهذا يدل على أن العضلة الرابطة قد أصيبت بضرر لا بد من علاجه، هنا قرر الطبيب المختص إجراء عملية فورية لربط العضلة.

بقيت يدي مربوطة ومغطاة بالجبس لفترة أكثر من أسبوعين، خلالها قام المقدم ضابط التوجيه السياسي الروسي للجامعة أثناء الدوام باستدعائي إلى مكتبه وحدي، على انفراد أخذ يتداول معي ما حصل في المطعم ذلك اليوم المشؤوم، بدأ الضابط بسؤالي عن أسباب وكيفية وقوع الحدث، أخبرته بالتفصيل عما جرى وكيف بدأ هذا الشاب الروسي بالاعتداء عليّ وكيف أني حاولت تفادي الاحتكاك به دون فائدة، وقلت له إني لم أعتدِ على أي شخص منهم، يبدو أنه كان مُلمًا بجميع تفاصيل الحادث ولذلك حاول استغلال الموقف الذي اعتقد أنه ليس في صالحي وتهديدي قائلاً:

– أنت تعلم أنك قد ضربت هذا الشاب الذي سددت له ضربة قوة في وجهه، وكانت ضربتك قاسية وعنيفة، ولذلك يمكن أن يحصل لك مكروه أو نتائج غير جيدة.

– هو من بدأ العراك وليس أنا.

– نعم، ولكنك ضربته بقوة كبيرة وعليك تحمل نتائجها.

– كيف لي أن أتحمل نتائج ذلك، إذ أنه هو من بدأ بالعراك والتعدي عليّ، وأنا من كان في وضع الدفاع عن النفس.

– نتائج التحقيق قد تكون ليست في صالحك بالمرة، وإدانتك يمكنها أن تصل بك إلى العودة إلى بلدك.

– كيف تقول هذا وأنا من تمَّ الاعتداء عليه؟ ثم ما الذي تقوله عن احتمال إعادتي إلى بلدي، وحتى إن حصل ذلك فإن بلدي سيرسلني إلى بلد آخر لإكمال دراستي.

– لا أعرف، ولكنك أيضًا في موقع الإدانة، ولكن إن تعاونت معنا فيمكننا تسوية الوضع وإنهاء المشكلة بالكامل.

– ولكن ماذا تقصد بأن أتعاون معكم وكيف؟

سألته باستغراب بريء ظاهر...

– نعم أنت تعلم أنك آذيت هذا الشاب كثيرًا، وقد ينتج عن ضربك له إعاقة دائمة في وجهه، ولكن إن تعاونت معنا فيمكننا إرضاءه وإسكاته، وبذلك لن تحصل لك أي مشكلة.

أجبته بعزمٍ وعنف واضحين:

– ماذا تقصد بأن أتعاون معكم؟

– أنت تعلم كيف تجري الأمور، إذ يمكننا إعادتك إلى بلدك... ولكن إن تعاونت معنا فقد نستطيع مساعدتك وإلغاء جميع هذه التبعات.

– أنا لا أخاف إطلاقًا، واعلم أن دولتي هي التي تدفع نفقات دراستي وليس أحد آخر، ولكن مهلاً... هل تقصد أن أتعاون معكم بأن أكون جاسوس لديكم؟

– ليس هكذا بالتمام... ولكن أن تتعاون معنا وتزودنا ببعض المعلومات، وبهذا تتخلص من جميع المشاكل.

– ما هذا أنت! هل أنت تهددني بشكل مباشر كي أعمل معكم كجاسوس أم ماذا؟

كان الجو مشحوناً للغاية وأصبح الجو لا يُطاق، ولهذا نهضت غاضبًا حانقًا على ضابط التوجيه السياسي الروسي وأضفت قائلاً:

– سأخبر فورًا قائدي بكل ما ذكرت وما حدث.

وخرجتُ مُسرعًا نحو المسؤول العسكري للبعثة... الشخص المؤمن يكون ورعًا لا يستطيع التخاذل في مثل هذه المواقف المصيرية التي تخص الوطن، خرجت فائرًا بدمي وفورًا توجهت نحو فندق سكني حيث يقطن مسؤولي العسكري وأخبرته بكل تفاصيل محادثتي مع ضابط التوجيه السياسي الروسي وتهديده لي، لم يُهمل المسؤول العسكري الموضوع واعتبره ذا أهمية قصوى، فورًا اتصل بالسفارة العراقية في موسكو وبذلك أصبح الموضوع حدثًا دوليًا بين حكومتي العراق والاتحاد السوفيتي.

لم تمر عدة أيام حتى وصل الملحق العسكري العراقي إلى كييف قادمًا من موسكو، زارنا الملحق العسكري مع وفد رفيع من السفارة العراقية إلى الأكاديمية واجتمع بقيادة الأكاديمية، وكذلك التقى في اجتماع عام بجميع الطلاب العسكريين الدارسين وأنا من ضمنهم، وأتذكر كيف نادى عليّ بحضور الجميع وطلب مني شرح ظروف وملابسات حادث الاعتداء وكذلك محادثة ضابط التوجيه السياسي الروسي معي فأخبرته بكل التفاصيل، شكرني وأثنى عليّ وعلى سرعة رد فعلي الصحيح، وأعلمنا أن السفير العراقي قد اتصل بوزارة الخارجية العراقية التي بدورها اتصلت بالجهات الحكومية السوفيتية العليا، ليعلموهم بالقضية وبأن الحكومة العراقية ترفض مثل هذه التصرفات، كما طلب

من جميع الطلاب أن يزيدوا همتهم في الدراسة ليخرجوا بنتائج فائقة ترفع رأس العراق عاليًا.

هذه الحادثة التي كانت يمكن لها أن تُشكل منعطف خطير وتغيير جذري في مجرى حياتي بالكامل، وأن تجعل مني شخص مُختلف تمامًا، إلا أنّ ردة فعلي السريعة والحاسمة التي اتخذتها في ذلك الوقت رغم صغر سني وقلة خبرتي؛ أنقذتني من السقوط في براثن الاستخبارات ودهائها.

opeikan.com